الأهرام

١٩٩٤/١/٤

فى ذكرى ميلاد سيدة الغناء العربى.. تاريخ ما أهمله تأريخنا للأدب والفن

عندما كانت الأغنية فنا أدبيا راقيا كتب شيخ الأزهر السابع وغنت أم كلثوم

ربما لم تكن أم كلثوم - التى وافق ٣١ ديسمبر الماضى ذكرى ميلادها - تعرف، أو لم يكن أساتذتها فى فن الغناء يعرفون أن القصيدة التى غنتها ومطلعها: وحقك أنت المنى والطلب .. هى من شعر الشيخ السابع من شيوخ الأزهر الشريف عبدالله الشبراوى. ولعل أم كلثوم أدت هذه الأغنية بدافع من طبيعتها التى كانت تختار الكلمة الأدبية الراقية. منذ بدأت تغنى للجماهير حتى آخر أيام حياتها.

أم كلثوم

فكما يقرر مؤرخوها أن سر عظمة أم كلثوم هى أنها إستجابت فى غنائها المنطلق من مشاعرها الحقيقية، التى إتفقت مع محبة الكلمة الأدبية الراقية. وليس أدل على ذلك مما كتبه نقاد زمانها عندما ظهرت لأول مرة فى القاهرة حيث كتب أحدهم فى وصف صوتها: بأنها ترسل الغناء إرسالا بغير قطعة من قطع الطرب تمهد لها سبيل الانغام»

وقال آخر: «زيادة عن حسن الصوت ورخامته، يوجد شئ إسمه الفن. وأم كلثوم تسير مع طبيعتها فقط.» وقال ثالث: «إن فى صوتها جفافا - أى لا ميوعة فيه - ولا يمر صوتها بالآذان. فما تكاد تنفرج شفتاها، وما يكاد الإنسان يحس النغمة تتكون فى مرورها بالاوتار حتى تنفلت من الأذن ولكن يخفق بها «القلب».

ويعلل الكاتب الكبير فتحى غانم فى تقييمه لفن أم كلثوم فى حياتنا. أن هؤلاء النقاد كانوا يفضلون غناء منيرة المهدية.. على غناء ام كلثوم.. ويقول: «كانت أم كلثوم - مغنية موالد الفلاحين - لها صوت طبيعى ينطق بالكلمة سليمة بلا عوج ولا التواء، وبعيدا تماما عن (التحركات المبتذلة) فضلا عن خلوه من صنعة التكلف فى التلاعب بالصوت، وترنيد الكلمات بصرف النظر عن معناها..»

وليس غريبا ان تختار أم كلثوم هذه الطريقة فى الغناء - الشاذة فى عصرها - وتتمسك بها، ولا تحاول ان تتعلم او حتى تتاثر بطرق الغناء السائدة وقتئذ فى بداياتها الفنية. ولعل السبب هو تكوينها الفنى المتصل بتكوين المصريين جميعا، وهى أن طبيعتهم فى الغناء اقوى من فنهم كما كان ينادى سيد درويش.

وليس غريبا والأمر كذلك. أن تغنى أم كلثوم هذه الأغنية للشيخ عبدالله الشبراوى دون ان تعرفه. إذا كانت كلماتها قد اتفقت مع طبيعتها الفنية. التى كان من سر عظمتها القدرة على إختيار كلمات الأغنية نفسها والتدقيق ما أمكنها فى هذا الاختيار. الى درجة انها كانت احيانا تقول وتغير من الكلمات فى القصائد الشعرية وهو امر ينطوى على تذوق رفيع المستوى للكلمة الأدبية التى بها تواجه جماهيرها.

وليس غريبا ايضا ان يكتب الأغنية احد شيوخ الأزهر. مادامت تنطوى على فن ادبى رفيع المستوى فمن بعده كتبها ابناؤنا الرواد. فكتبها أمير الشعراء احمد شوقى، وشاعر النيل حافظ وعملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد، وجاحظ القرن العشرين مصطفى صادق الرافعى، وعميد الأدب العربى طه حسين.

نعم طه حسين كتب الأغنية أيضا، حيث لو كان من الطبيعى ان يكتبها شوقى وحافظ والعقاد والرافعى

بوصفهم فى الأصل شعراء. فقد يكون من غير الطبيعى أن يكتبها طه حسين الذى عرفناه ناثرا!

إلا أنه من الثابت أن طه حسين كتب الأغنية، كما كتب الشعر ايضا.. حيث كانت مفاجأة للجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. وهى بصدد البحث عن الحان واغانى كامل الخلعى للإحتفال به. أن تكتشف أغنية للشيخ طه حسين لحنها الموسيقار كامل الخلعى مطلعها:

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

١٩٩٤/١/٤

انا لولاك :. كنت ملاك.
غير مسموح :. اهوى سواك
سامحنى
وانه كتب الشعر ايضا فى قصائد منها قصيدة مطلعها:
شادن عطف :. عطفه الحبيب
بعد ما صدف :. صدفه الملوك
كم سبى العقول :. قوله الخلوب
يملك القلوب :. ثم لا ينيل
وغيرها من اغان واشعار كتبها. إلا أن شهرته فى مجال النثر نقدا وإبداعا قد غطت على هذا الجانب.

وقبل شوقى وحافظ والرافعى والعقاد وطه حسين. بل قبل حركة بعث الشعر المصرى وإحيائه كان هناك شعراء. وليس صحيحا ـ كما يحلو للبعض ان يكتب ـ بانه لم يكن هناك شعراء قبل البارودى!

بل كان هناك شعراء كبار. صحيح انهم لم يكونوا فى طول قامة البارودى او شوقى إلا أنهم شعراء على اى حال! يمثلون مرحلة من مراحل الشعر المصرى. وكان شيخ الأزهر عبدالله الشبراوى واحدا من هؤلاء الشعراء. السابقين على حركة البعث والإحياء الشعرى. حيث برع فى الأدب والشعر إلى جانب براعته فى الفقه والحديث والأصول والعقيدة والدين بوجه عام. فكان من بين مؤلفاته ديوان «مفاتيح الألطاف فى مدائح الأشراف» نشرته المطبعة المحمودية ببولاق فى سنة ١٣١٤هـ. بعد وفاته بما يقرب من المائة والخمسين عاما. وقد ذكر الجبرتى هذا الديوان فى تاريخه بانه يحتوى على غزليات واشعار ومقاطيع ـ أى مقطوعات .. غنائية مشهورة»

وقد أخذ مطربو زمانه اشعاره الغنائية ولحنوها وغنوها. وإشتهرت هذه الأغانى، ونسى صاحبها الشيخ الشبراوى. ومن هذه القصائد الغنائية قصيدته التى غنتها أم كلثوم، والتى يقول فيها:

وحقك انت المنى والطلب.
وانت المراد وانت الارب.
ولى فيك ياهاجرى صبوة.
تحير فى وصفها كل صب.

ابيت اسامر نجم السما.
إذا لاح فى الدجى او غرب.
متى ياجميل المحيا ارى.
رضاك وينهب هذا الغضب.
اشاهد فيك الجمال البديع.
فياخذنى عند ذاك الطرب.
ويعجبنى منك حسن القوام.
ولين الكلام وفرط الأدب
وانبت فى الخد روض الجمال.
ولكن سقاه بماء اللهب.
لئن جدت او جرت أنت المراد.
ومالى سواك مليح يحب.

إلى آخر أبيات هذه القصيدة الغنائية التى تعتبر من اجمل قصائد الشعر العربى المصرى رقة ورشاقة وإبداعا. والتى من أجلها مع غيرها من قصائد ضمها ديوانه وصفه الجبرتى فى تاريخه بانه: «الشيخ الفقيه الامام المحدث الأصولى المتكلم الشاعر الأديب.. عبدالله الشبراوى» وانه ـ الكلام للجبرتى ـ «صار أعظم الأعاظم، ذا جاه ومنزلة عند رجال الدولة والأمراء، ونفذت كلمته، وقبلت شفاعته، وصار لأهل العلم فى مدت رفعة مقام، ومهابة عند الخاص والعام، وأقبل عليه الأمراء وهابوه بانفس ما عندهم. وعمر دارا عظمة على بركة الأزبكية بالقرب من الرويعى.. وكان يقتنى الظرائف والتحائف من كل شئ، والكتب المكلفة النفيسة بالخط الحسن».

وأنت ترى من هذا الموجز المختار من تاريخ الجبرتى فى وصفه لهذا الشيخ الجليل. مايوحى بأنه كان فنانا عظيما. وأديبا مبدعا.

ومن المؤكد أن قصائده كانت تغنى فى عصره، وما بعد عصره حتى وصلت الينا ملحنة فيبدو أن شعراء مصر كانوا يقرنون دائما بين الشعر والغناء. لإعتقادهم بأن الشعر الذى لايغنى يفقد الموسيقى. او على الأقل تصبح له موسيقى جامدة حتى وإن كانت القصائد موزونة. ومن المؤكد ايضا ان هذه الأغنية التى كتبها الشيخ الشبراوى، قد وصلت أم كلثوم فاعجبت بكلماتها دون ان تعرف ـ على الأقل فى وقت غنائها ـ أن كاتبها هو الشيخ عبدالله الشبراوى. فغنتها لا لسبب إلا لكونها تمثل فنا أدبيا رفيعا □

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية